القسم الاول

خصوصيات التفاعل بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج الزراعى فى المجتمع اليمنى القديم

مقـــدمة القسم

لقد كنت شغوفاً ومشتاقاً للحديث والبحث فى هذا الموضوع الهام المتعلق بمسألة الأرض والإنسان فى المجتمع اليمنى شديد التأثر به إلى حد الإحساس بالخوف والقلق العميق ، الذى يعترى أى إنسان وهو مستقيم على سطح منزل تاريخى عريق وهو يتداعى من تحت قدميه قطعة قطعة بسرعة يكتنفها الصمت والهدوء المميت ، خصوصاً وأن سكان هذا البيت لم يكونوا ليدركوا ماهو حال بهم بين لحظة وأخرى ، بل إنهم أيضاً يشاركون أدوات الهدم وعوامل التعرية فى فعلها المدمر بوعى منهم أو بدونه . لقد كان هذا بالضبط هو شعورى وأنا أتنقل من منطقة لأخرى إبتداء من مرتفعات حراز الجميلة الساحرة فى إمتداد الحيمة والطويلة والمحويت وحتى حجة وراز ح وصعده شمالا وغرباً ، وريمة ووصاب وآنس وإريان وإب وبعدان وحتى النادرة ودمت ورداع والبيضاء ومأرب جنوباً وشرقاً ، كما هو شعور كل من له علاقة قربى حميمة إزاء هذه الأرض وغيرها من الأراضى الزراعية فى أنحاء اليمن ، والتى إنتزعها الإنسان اليمنى القديم من قبضة الطبيعة القاسية والمتحجرة إنتزاعاً ، وفرض نفسه عليها فرضاً عجيباً لانكاد نعثر له على نظير يقترن به أوقدوة يحتذا بها منذ أكثر من ستة آلاف سنة ، وجعل منها ينبوعاً للخير ومثالا حياً لسحر الطبيعة وجمالها الخلاب الذى وهبها إياه هذا الإنسان بحق أكثر مما وهبته لنفسها ، وذلك حينما نشاهدها اليوم وهى تتداعى قطعة قطعة وتموت كالكائن الحى خلية خلية تحت غطاء من الصمت والذهول المروع الذى أصيب به أهلها إلى الحد الذى لايدرون معه أى تعبير يمكنهم إستخدامه عن مأساتهم هذه ، ولا أى نوع من الصراخ يتناسب وهذا النوع الجديد من الموت الذى يأكل الأرض من بين أيديهم ويمزق كل مابينهم وبينها من صلات الرحم والقربى العتيدة ، بل إنهم فى الغالب ومن فرط ماأصابهم يبدون مبتسمين ساخرين وفى حالة طبيعية جداً « وشر البلية مايضحك » كما يقال ، وهم يحدثونك

الحديث المألوف عن أن إنتاج القدح الطعام من الذرة البيضاء أو الشعير ..الخ والذى يباع فى السوق بخمسين ريالا على الأكثر تكلفهم زراعته مائة وخمسون ريالا على الأقل ، وأنهم لا يزعون الأرض إلا زراعة شكلية للمحافظة على إثبات حقهم فى ملكيتها أو لمجرد إعتبارات إجتماعية معينة تفرض عليهم ذلك لاأقل ولاأكثر ،وأنشراء قطعة أرض من عشر لبن فى المساء فى مدينة صنعاء أو الحديدة أو تعز وبيعها فى الصباح لايعوضك فارق السعر عن محصول ألف لبنة من تلك الأرض المحتضرة من الذرة والشعير طوال العام فحسب ،بل إنه يجنبك الخسارة المحققة على الاصح ،ويوفر مشقة« الرعوية والنكد وراء الثور والحمار » لك ولجميع أفراد أسرتك طوال العام . كما أن ولد صالح يكون بالضرورة ومن الأفضل « غير متعلم » ترسلة إلى اقرب منطقة من مناطق البترول المجاوره يستطيع أن يحقق لك من عائد تحويلاته الشهرية أو السنوية نفس النتيجة ، أما لوصار لديك بيتا للايجار فى المدينة أو دكانا صغيراً أو كبيراً فيها أو حتى فى القرية نفسها لبيع البيبسى كولا وسجائر الروثمان وأنواع المعلبات المستوردة والتسالى ولعب الأطفال القادمة من « هو نق كونق » فانك ولا شك ستكون أسعد حظا ، خصوصا إذا ما أستطعت بشطارتك وخبرتك اليمنية الجيدة أن تجمع بين كل هذه الاشكال من التصرفات فى وقت واحد ، فستستطيع من خلالها لا أن تحقق حياة أكثر سعادة ومالا أكثر وفرة فحسب ، بل وتستطيع أن تخصص جزء من هذا الدخل الوافر لكى تنفقة بلاعائد وكيفما أتفق على زراعة ما تملكة من أرض حفاظا على ماء وجهك وأعتبارك الأجتماعى داخل القرية وتكفيراً عن عقدة الذنب العميقة التى ما تزال تطاردك ولم تستطع التخلص منها بعد إزاء هـــذا الكائن الحى الذى يحتضر « الأرض الزاعية » .

أما إذا كنت أكثر حظا من السابقين جميعا وكنت قد فزت بالحصول على أحدى الوكالات التجارية لتصدير البشر وأستيراد البيض أو البسباس أو الما المعلب ، نهاهيك عن مساحيق التجميل وأحمر شفاه . . الخ . فأنك

سوف لن تكون قد بلغت « ذى تمنى المتمنى » فحسب بل إنك ستكون قد شفيت أيضا من عقدة الذنب السابقة التى ما يزال يعانى منها الكثيرون غيرك لإنك لم تعد فى غنا عن تلك الأرض فحسب بل وغير محتاج إطلاقا لأن تمارس مشاعر الإنتماء إليها وإلى أهلها ، إلا بأعتباره أمتيازا تجاريا وشخصيا يقوى موقفك عند إبرام التعاقد ، رغم ما قد تسبب لك مثل هذه المشاعر لو أضطررت إلى الكشف عنها فى غير مثل هذا الموقف من الاحراج والأمتعاض الذى لا يتناسب وأتكيت صالونات السوبر مان والسوبر ماركت فى شارع الهرم بالقاهرة والشانزلزية فى باريس وغير ذلك من الأماكن الشهيرة فى لندن وروما وغيرها ، هناك حيث يحتسى الكثير من مثل هؤلاء الزنادقة دم اليمن ويغيروا سحنةوجوههم وأسمائهمونبرات حديثهم حتى لا يقالأنهم من اليمن . ! !

وهكذا أصبحت العلاقة الاجتماعية الأقتصادية مع الأرض الزراعية فى اليمن بالنسبة للغالبية العظمى ممن يملكونها من المزارعين وما يزالون يقيمون عليها من الفلاحين هى مجرد عقدة ذنب قديمة جديدة تؤرقهم ليل نهار ، عقدة كائن حى تمتد جذور وجودهم فى رحمه لأكثر من ستة الاف سنة وهو يحتضر بين أيديهم فى صمت وبلا ضجيج دون أن يقووا على أدراك أسباب هذا الاحتضار ، وهم بدلا من محاولة أكتشاف هذا السبب يحاولون مختارين وغير مختارين تمزيق وبتر كل صلة حقيقية لهم بهذا الكائن قبل أن يقضى نحبة ويلفظ أنفاسه الاخيرة ، ويعدون أنفسهم للحياة بدونه ، ناسين أو متناسين ـ من فرط تعاستهم ـ أنهم إحدى خلايا هذا الكائن نفسه وأن فى دماره يكمن فنائهم المحقق ، أما تلك القلة ممن أصبح العالم لهم وطننا والسمسرة دينا ، فإن هـــذه الارض ومن عليها لم يعد الإنتماء إليها بالنسبة لهم ـ كما رأينا ـ أكثر من مجرد سلعة فى حلقة المزاد أو أمتيازا تجاريا مربحا عند أبرام التعاقد مع الغير فقط ، ومصدر حرج وأمتعاض يحاولون الترفع بأنفسهم عنه دائما فى غير مثل تلك المواقف .

هذا بالضبط هو المشهد التراجيدى العجيب الذى تعيشة أرضنا وبلادنا اليوم فى شمال الوطن بالذات ، ولاتستطيع أية عين بصيرة أن تنكره أو تشاهد غيره ، والذى كنت ولم أزل أحس نحوه بالخوف والقلق العميق تجاه الأرض التى ولدت ونشأت فوق ترابها وكنت أفلحها بنفسى قبل خمسة عشر سنه أو أقل أو أكثر وتربطنى بها أقوى روابط الخير الوفير والصلات الحميمة ، وهى تموت اليوم أمام عينى ويداى لا تقوى على الوصول إليها ، وتموت فى أعماق كل يوم صلاتى الحقيقية بها التى لم يبق منها بالنسبة لى وللكثيرون غيرى سوى مثل هذه الكلمات والتأوهات التى يجيد نطقها الممثلون على عتبه مسرح التراجيديا المحزنة ، هذا هو المشهد الذى يعيشة الملايين من أبناء اليمن وأصبحوا يدركونه عن كثب مع بعض الفوارق النسبية فى التقدير الذهنى للمقدمات والنتائج . ولقد تحول هذا الموقف من حالة الخوف والقلق بالنسبه لى إلى الأحساس والشعور بالمسئولية بعد أن وقعت فى يدى بعض الدراسات والابحاث التاريخية الجادة والتى استطعت ان اختزل من جلالها مجموعة من الحقائق الأقتصادية والأجتماعية والسياسيه على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لحياة المجتمع اليمنى القديم والحديث وعلاقته برقعة الأرض الزراعيه بصفة خاصة وبمجمل حقائق التاريخ اليمنى والحضارة اليمنية بصفة عامة ، حيث لم تستطع هذه الابحاث والحقائق التاريخية ان تنقلنى من موقف الأحساس بالخوف والقلق إلى موقف الشعور بالمسئولية فحسب ، بل إنها قد زودتنى أيضا بأهم ماكنت أفتقر إليه من الحقائق التاريخيه والعلمية والتجريبية الخاصة بهذة المنطقة الزراعية من العالم ، وعززت فى نفسى الثقة العلمية بكل الحقائق السابقة ، وكل الفروض والاحتمالات التى كنت أفترضها منذ مدة طويلة كأسباب ونتائج لما كانت عليه الرقعة الزراعية فى اليمن فى الماضى البعيد وما أنتهت إليه فى الحاضر ، مع تصور بعض البدائل الأفضل للمستقبل وهو الأمر الذى آمل الكشف عنه فى هذا البحث .

وانطلاقا من التزام مبدئى من جانب الباحث بروح الحقيقه العلمية

وحياد موقفها وبعدها عن كل المظنات فقد التزمت بأحدث المناهج العلمية والتاريخية فى علم الأجتماع المعاصر والمنبثقة أساسا من النظرية العلمية المعاصرة كاطار منهجى لمعالجة موضوع هذا البحث ، محددا إطار هذا القسم المكون من فصلين فى البحث فى مسأله الأرض والإنسان فى المجتمع اليمنى القديم حيث يتضح المدلول العلمى لهذه العبارة فى البحث فى قوى الأنتاج وعلاقات الأنتاج فى المجتمع اليمن القديم ، وسنتناول الأرض (قوى الأنتاج) فى فى الفصل الأول ، والإنسان (علاقات الإنتاج) فى الفصل الثانى .

وإننى إذ أتقدم للقارىء والباحث اليمنى والعربى وغير العربى داخل اليمن وخارجها بهذه المحاوله لاأدعى بأننى اقدم السهل الممتنع فى هذا الموضوع ، لأن أقصى ما يمكن أن تسمح به الظروف الذاتية والموضوعية لأى باحث فى هذا الشأن فى بلادنا لايتجاوز فى الوقت الحاضر على الأقل مجرد وضع الأشارات الأولى على درب طريق شاق وحافل بالمكاره كهذا « طريق حل مشكلة الإنسان والأرض فى المجتمع اليمنى » ، وإذا قدر لى ووفقت فى وضع اشارة واحدة صحيحة من خلال هذا الجهد فإننى بذلك اكون قد حزت من النجاح أكثر مما رجوت وتمنيت ، وإذا لم فإن عزائى هو ماجاء فى الحديث القائل « من اجتهد وأخطاء فله أجر ومن أجتهد وأصاب فله أجران » .

الفصل الأول

قوى الإنتاج « الأرض والإنسان »

تمهيـــد :

ربما يكون أول ما ينتظره القارىء بمجرد أن يلمح العنوان السابق لهذا الفصل هو أن نقدم له تحليلا نظرياً شاملا عن كل الأسس والمبادىء والمفاهيم المتعلقة بموضوع فكرة قوى الإنتاج ، متى ظهر هذا المصطلح ومن المسئول عن ظهوره ومدى تأثيره إلى غير ذلك من كل ما يتعلق بهذا المفهوم العلمى الذائع الصيت والتأثير فى النظرية الاشتراكية العلمية التى أتت به بواسطة مؤسسها الأول كارل ماركس فى أوائل القرن العشرين ، والتى تشير باختصار إلى قوى الإنتاج باعتبارها مجموع الأدوات والموارد المادية الموجودة فى الطبيعة ، وما يقوم الإنسان بتطويره وصنعه منها ، مضافاً إليها الوجود الاجتماعى المباشر للأفراد ، وأن علاقات الإنتاج هى مجمل التنظيمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية المختلفة المنظمة لعلاقة الناس ببعضهم من جهة وبهذه القوى الإنتاجية نفسها من جهة أخرى .

إلا أننا سوف نعفى أنفسنا من هذه المهمة فى موضوعنا هذا لاعتبارات كثيرة يأتى فى مقدمتها أن فى إمكان القارىء أن يرجع لتفاصيل هذا الموضوع فى عشرات ومئات الكتب العلمية التى تناولت هذا الأمر وقتلته بحثاً كما يقال ، والذى لا يوجد لدينا ما نضيفه إليها أو نعترض به عليها ، ولأن ذلك لو تم لكان من باب تحصيل حاصل ، عوضا عن أن كون مثل هذا الأمر لا يشكل هدفاً مباشرا أو غير مباشر من أهداف هذا البحث ، كما أن ما نحرص عليه فى موضوعنا هـذا هو أن نبحث عن الخصوصيات الواقعية والمادية لهذا المفهوم فى ماضى وحاضر المجتمع اليمنى كهدف أساسى مباشر من أهداف هذا البحث .

وإذا كانت أهم المكونات المجسدة لقوى الإنتاج فى أى مجتمع زراعى

تقليدى كالمجتمع اليمنى القديم هى الأرض الزراعية والموارد الطبيعية المباشرة مضافا إليها الكم البشرى فإننا سوف نركز على الأرض والإنسان باعتبارهما التجسيد الأساسى لقوى الإنتاج فى المجتمع اليمنى القديم وفى كل مجتمع تقليدى ذلك أنه لم تكن لتوجد الآلة اليدوية والحرفية إلا باعتبارها امتداداً وتعبيرا مباشرا عن الموارد الطبيعية المباشرة ومكملة لها من زراعة وتعدين ونحو ذلك.

ولم تنفصل الآلة وتستقل بنفسها كقوة إنتاجية قائمة بذاتها إلا بعد الثورة الصناعية فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر وحدوث التطور الهائل فى تقدم العلم والتكنولوجيا الصناعية الحديثة .

أولا — الأرض

ينقسم التركيب الجغرافى والمناخى لليمن بديهيا إلى ثلاثة أقسام أو أنماط وهى المناطق المرتفعة الباردة فى قمة الهضبة وحوافها ، والمعتدلة على سفوح وجوانب هذه الهضبة ، والحارة على أطرافها فى ساحل البحر الأحمر والبحر العربى جنوبا وغربا والصحراء الشرقية والشمالية ، وداخل هذا التوزيع الجغرافى والمناخى يمكن استخلاص خمس مناطق زراعية متباينة نسبيا :

١ — المناطق المرتفعة أو سطح الهضبة وهى تميل إلى البرودة والاعتدال طوال العام من حيث المناخ ، والانبساط النسبى من حيث السطح ، وقليلة الأمطار نسبياً ، وتتخللها بعض الوديان الصغيرة والينابيع الدائمة الجريان والآبار الجوفية التى تروى بعض المساحات الزراعية الصغيرة .

٢ — مناطق المدرجات الجبلية المرتفعة والتى تبدأ من مشارف وسفوح الهضبة على كل الاتجاهات تقريبا ، شرقا وغربا وجنوبا وشمالا ، وحتى حواف السهول الشرقية والغربية ، حيث يميل المناخ إلى الاعتدال المنعش طوال العام والأقل برودة من سطح الهضبة بصفة عامة ، وتهطل على هذه المنطقة الأمطار الغزيرة وتغطى سطحها الخضرة الزراعية والطبيعية فى أغلب فصول السنة ، ويميل سطحها إلى التضرس الشديد والسفوح الشديدة الانحدار أيضاً ، وتكثر فى هذه المنطقة الينابيع والعيون الصغيرة دائمة الجريان التى يعتمد عليها فى الشرب والرى الزراعى إلى حد ما .

٣ — الوديان العميقة وبعض المساحات والسفوح والوديان الزراعية

المائلة إلى الانبساط والأقل تضرسا والتى توجد متداخلة مع منطقة المدرجات وحواف السهول الشرقية والغربية وتتمتع بنفس المناخ وكمية الأمطار وانتشار الخضرة إضافة إلى توفر المياه الجوفية والأنهار شبه الدائمة الجريان طوال العام ، وهى من أخصب المناطق وأكثرها ازدحاماً بالسكان فى الوقت الحاضر.

٤ — منطقة السهول الشرقية التى تفصل ما بين الصحراء والهضبة فى شكل شريط سهلى عالى الخصوبة تكون بفعل انحدار المياه والسيول القادمة من قمة وحواف الهضبة عبر آلاف السنين وحتى الآن ، ويسوده مناخ معتدل مائل إلى الحرارة نسبيا وتنخفض فيه الرطوبة إلى حد كبير ، وهو قليل الأمطار نسبيا ويعتمد على مجارى السيول القادمة من الهضبة بالدرجة الأولى إلى جانب المياه الجوفية الوفيرة .

٥ — منطقة الهول ، أو السهل الغربى الذى يفصل الهضبة عن البحر الأحمر (تهامه) وهو لا يتميز عن السيل الشرقى والجنوبى إلا فى كونه يتلقى كمية أعلى من نسبة الأمطار الموسمية ويسوده مناخ شبه استوائى حار مصحوب بالرطوبة النسبية والعالية أحيانا ، ويتشابه مع السهل الشرقى من حيث اعتماده الأساسى على السيول المنحدرة من قمة وحواف الهضبة من جهة والخصوبة العالية للتربة من جهة أخرى .

ونظرة عاجلة متمعنة إلى الطريقة التى استصلح بها الإنسان كل هذه الأراضى الزراعية عبر التاريخ فى سفوح الجبال ومنحدراتها أو قيامه بعملية خلقها على هذه المنحدرات والسهول على الأصح ، وبناء ما تتطلبه من مرافق رى وطرقات وصيانة . . . الخ . تستطيع أن تقنعنا ومن أول وهلة أن هذه الرقعة الزراعية قد مالت حقيقة لأن تكون هبة الإنسان وصنعه وعطائه أكثر من كونها هبة الطبيعة وعطائها كما يفترض عادة ، وأن دوافع الإنسان البنى الاجتماعية والتاريخية والنفسية فى فرض حياته على هذه الأرض قد تجاوز مجرد الدوافع الاقتصادية والمعيشية وحدها . إلى تأكيد ذاته ووجوده الاعتبارى أيضاً ، الأمر الذى سيتضح من خلال تحليل هـذه المناطق من الناحية التاريخية وكيف تعامل معها الإنسان منذ وقت مبكر وذلك على النحو التالى :

(أ) المدرجات

لقد تعود اليمنيون منذ القدم بناء مزارعهم ومدرجاتهم المسطبية الجميلة والمعقدة غير محكومين فى ذلك بمجرد البعد الاقتصادى المحصور فى كمية وقيمة ما سيبذلونه من جهد فى مقابل ما سيجنونه من المحصول وتوفير أسباب البقاء فحسب ، بل ومتأثرين فى ذلك بأبعاد اجتماعية ونفسية وجمالية شديدة الوضوح ، فالإنسان اليمنى ممعن منذ القدم فى الإصرار على إقامة المدرجات الزراعية فى أشد المناطق الجبلية وعووة ، وإقامة الحواجز المرتفعة على المنحدرات الصخرية لتجميع التربة التى تأتى بها مياه الأمطار المنحدرة من أعلا وعوامل التعرية الطبيعية لكى يحصل على مسطبة زراعية قد لاتتجاوز عدة أمتار مربعة من التربة بعد عدة سنوات ، وكثيرا ماكان يرفض هذا الانتظار الطويل لفعل الطبيعة وحركتها البطيئة ليقوم بنفسه إضافة إلى إقامة الحواجز والجدران بعمليه البحث عن التربه من خلال تنقيه وتفتيت الصخور المجاورة نفسها ، أو نقلها من أماكن بعيدة على كاهل حيواناته وماشيته أو بقوته العضليه المجردة حينما تعجز الحيواناب التقليديه عن الوصول إلى كثير من الأماكن المتضرسه وشديدة الانحدار .

ونتيجة لطول مراس الفلاح اليمنى فى التعامل مع هذا التكوين الطبيعى والجغرافى للأرض نمت لديه خبرات نادرة فى كيفية بناء الحواجز والجدران الحافظة للتربة فى المدرجات المرتفعة والتى يتراوح إرتفاع جدران هذه المدرجات فى الغالب مابين مترين إلى ستة أمتار ، وتتراوح أمتداداتها الطولية مابين خمسة عشر مترا إلى خمسين مترا فأكثر ، بينما لايتجاوز عرض المساحة المسطحة من التربة فوق كل جدار أكثر من أربعة إلى خمسة عشر مترا مربعا فى أحسن الأحوال ما عدا بعض الأستثنآت التى تسمح بمساحة أكثر من الأرض . وتوجد هذه المدرجات متلاصقة مع بعضها أو فوق بعضها على الأصح ، حيث يبدأ المدرج الأعلى من حيث تنتهى المساحة العرضية للمدرج الأسفل مباشرة فيما يشبه تكوين درجات السلم تماما ، وهى غالباً ما تتخذ أشكال نصف دائرية أو منحنيات مائلة ومتعرجة ، وفقا لطبيعة

التكوين الإصلى لسطح الأرض المنحدرة ، ونادرا ماتكون فى شكل خطوط مستقيمة تتعارض والتكوين التلقائى لسطح الأرض .

ويتم تحديد المجارى الرئيسية للمياه المنحدرة بعناية كبيرة ، والتى تتخذ بطبيعتها أشكال خطوط عرضية حادة عبر هذه المدرجات ، بحيث تستطيع هذه المدرجات أن تحصل على حاجتها من هذه المجارى المائية فقط بشكل مقنن وبالقدر الذى لايسمح بافساد المحصول أوإنحراف المجرى الرئيسى للمياه إلى داخل أراضى المدرجات ، حيث قد يؤدى هذا الإنحراف إلى نهيار الجدران والموانع الحجرية للتربة بسهولة وجرف التربة نفسها نهائيا ودفعة واحدة . وغالبا مايتم التركيز فى مثل هذه المناطق على عملية الصرف أكثر من عملية الرى ، نظرا لأن هذه المدرجات المسطبية الصغيرة غالبا ماتكتفى بكمية الأمطار التى تهبط إليها مباشرة ، بينما تشكل المجارى الطبيعية لتجميع المياه الزائدة تهديدا مباشرا وغير مباشر إذا ما انحرفت مساراتها المحددة أوزادت عن المنسوب الإعتيادى .

ونتيجة لطول مراس الأنسان اليمنى فى التعاملى مع هذا التكوين الطبيعى والجغرافى لأراضى المرتفعات فقد نمت لديه خبرة طبيعية وعملية نادرة فى كيفية بناء هذه المدرجات ومرافق ريها وصرفها بما يجعلها أكثر قدرة على المقاومة لعوامل التعريه الطبيعية المختلفة ، وتجعل من هذه الطبيعة نفسها لوحة فنية أكثر جمالا ومدعاة لغرور وكبرياء الإنسان نفسه الذى قام بصنعها عنوة واقتدارا ، وهنا قد تكمن الحقيقة الجوهرية التى مؤداها أن الأرض الزراعية فى هذه المناطق لم تكن مجرد مورد إقتصادى للعيش بقدر ما أنها كذلك أصبحت جزء لايتجزأ من شخصية الإنسان اليمنى نفسه وتجسيدا ماديا ومعنويا لرغبته فى الإستمرار والبقاء منذ القدم وحتى اليوم ، فهو يرى فيها نفسه ووجوده بقدر مايحصل منها على ضروراته الإقتصادية والمعيشية .

(ب) أراضى الوديان والسفوح الداخلية

تتكون هذه المناطق الأقل تضرسا من الوديان المنخفضة الضيقة وسفوح الجبال وبعض المساحات الداخلية فى قمة الهضبة أو على مشارفها وجوانبها حيث

تتوفر كميات التربة من جهة وتتضخم مجارى المياه الأكثر تركيزا ، وتهطل الأمطار الأكثر غزارة نسبيا وتتوفر الغيول والعيون دائمة الجريان ، وحيث المناخ المنعش والمائل إلى الإعتدال طوال العام ، فى أراضى هذه المناطق أبدى الفلاح اليمنى منذ زمن بعيد مهارة أكثر فى الاستفادة من هذه المساحات والسفوح العالية الخصوبة ، فى أقامة المزارع الاقتصادية النموذجية التى أحتاجت إلى جهود جماعية غير عادية لإستصلاحها ، من حيث الجهد المضنى لتنقيتها من الصخور المتداخلة عادة بعمق مع التربة من جهة والقيام بعملية تسويتها وتسطيحها من جهة ثانية ، ثم إقامة الموانع الصخريه العالية التى تحفظ التربة وتحميها من عملية الإنهيار وجرف السيول ، ويحقق فى الوقت نفسه تنظيم ريها الكافى من هذة السيول بدون مخاطر جرفها وتهديمها ، ثم إقامة السدود الكثيرة المتوسطة الحجم والكبيرة بغرض توفير رى شبه دائم من جهة وتقليل مخاطر السير العشوائى للمياه والتحكم فيها من جهة ثانية ، ثم إتاحه مخزون هائل من المياه الجوفيه يتاح معه تدفق الينابيع والغيول طوال العام نتيجة احتجاز المياه على مساحات واسعة من الأراضى المرتفعه خلف جدران السدود .

وإذا كانت الطبيعه الجغرافيه المتضرسة لمناطق المرتفعات الجبلية أومناطق المدرجات التى سبقت اليها الإشارة ، قد حدت بطبيعتها من طموح المزارع اليمنى فى الحصول على مساحات أوسع من الأرض ومجال أرحب لتحدى هذه الطبيعة والإحساس بالتفوق عليها ، فان هذه المناطق الأقل تضرسا فى الوديان العميقة وسفوح الجبال والمساحات الداخلية والمتداخلة مع تلك المرتفعات الجبلية قد أعطت هذا الإنسان الفرصة الذهبية الكافية لتحقيق كل طموحاته المادية والمعنويه بدون أدنى شك ، ذلك أنه بالرغم من أن ٩٩٪ على الاقل من مجمل الاراضى والسدود والمزارع الإقتصادية التى تم استصلاحها منذ أكثر من ٣٥٠٠ سنه على الاقل قد تهدمت تماما مرافق ريها ومواصلاتها من سدود وطرقات ، إلا أنه مايزال فى مقدورك أن تشاهد بالعين المجردة بقايا وأنقاض هذه الأراضى الزراعية ومرافقها من سدود وطرقات وغيرها بطريقة لاتختلف كثيرا عن مشاهدة آثار الحصون والمدن القديمة أيضا .

إن الكثير من هذه المزارع كان يمتد بعضها ليشمل مساحات من الأراضى تتجاوز مئات الأفدنه إن لم نقل آلالف الأفدنه ، وذلك من خلال

ملاحظة بقايا الجدران والحواجز الصخرية التى يمتد طول بعضها إلى عدة كيلو مترات لتحتضن مناطق جغرافية بأكملها ، والتى تم بناؤها بطريقه شبه أسطوريه فيما يشبه بناء الاهرامات من حيث حجم الاحجار ومتانه بنائيا وبأرتفاعات يصل بعضها إلى عشرين مترا ، فنمط هذه الجدران منتشر فى معظم المناطق المشار إليها آنفا والتى كانت تحتضن ورائها المساحات الزراعية الهائلة قبل أن تتحول اليوم إلى أحراش أو قطع من الارض المفتته عديمة الرى ورديئة المحصول ، حيث ما يزال يضرب بتلك الجدران والحواجز المثل بين الفلاحين والمزارعين حتى اليوم فى الاتقان والمتانه وفى التفرقة بين أنواع الحواجز والجدران الزراعية الجيدة والرديئة فى البناء بصفه عامة ، إذ أنه من السهل عليك أن تسمع أحد الفلاحين وهو يفخر بأنه قد أقام أرضه على جدار « أسعدى » أو جدار « جاهلى » أو جدار « قرمطى » وهى التسميات التى صاروا يطلقونها على آثار تلك الجدران والحواجز المنيعة هنا وهناك من بقايا السدود والطرقات والمزارع الكبيرة .

والجدار « الاسعدى » هو نسبة إلى « سعد الكامل » وهو آخر الملوك الحميريين الاقوياء الذى أشتهر شهرة عظيمة فى إستصلاح الاراضى الزراعية وإقامة السدود لريها الدائم والموسمى ، وكان يشرف على بناء جدرانها ويمارس البناء بنفسه طوال حياته وطبع به عصره وتاريخه حتى اليوم(١) . كما أن الجدار الجاهلى يحمل نفس الدلاله بصورة أكثر شمولا وعموميه على كل ما هو قديم وسابق على ظهور الاسلام من مبانى وحواجز وسدود زراعية وغير ذلك من معالم التاريخ المختلفة مما صار يعرف بتاريخ العصر الجاهلى فى الجزيرة العربية بصفة عامه إشارة إلى حياة ما قبل الاسلام ، وأما الجدار أو « الجدر القرمطى » والذى ينتشر مفهومه بين أبناء المناطق الشمالية الغربية من بلاد إلا هنوم وشهارة وحجه وغيرها ، فهو نسبة إلى عهد الزعيم اليمنى القرمطى على ابن الفضل الذى وحد اليمن فى مطلع القرن السابع الهجرى وأستقل بها عن مراكز الخلافة والائمة الموهومين وطبق فيها الكثير من الاصلاحات الجذرية فى العلاقات الاجتماعية والأقتصادية وإستصلاح الأراضى على أسس شبه اشتراكيه وجماعيه واضحة على غرار ما فعلة القرامطة فى

(١) راجع صفة جزيزة العرب للهمدانى .

البحرين وغيرها من مناطق الخلافة الاسلامية التى تواجدوا فيها وأقاموا عليها نظما سياسية مستقلة(١) .

وهكذا نستطيع القول بأن الشهرة التى عرفت بها اليمن فى بناء السدود وشكلت هذه الشهرة النمط الأساسى لطابع الحضارة اليمنية برمتها حتى اليوم هى من باب أولى دالة علميه وموضوعيه لا تحتمل الشك على شهرة الإنسان اليمنى وإمعانه فى بناء المزارع الأقتصادية فى المقام الأول والتى لم يكن بناؤها أقل عناء ومشقة وتقنيه من بناء تلك السدود التى ترويها بصفه دائمة ، فأستصلاح الأرض هو المتغير الأساسى الذى ينجم عنه بناء السدود كمتغير ثانوى ، فالمدرجات والمزارع الواسعة التى تم بناؤها فى هذه المناطق هى المتغير الأساسى المستقل الذى أستلزم بناء السدود والطرقات كمتغيرات ثانوية تابعة ، لريها وتأمينها من الجرف وعوامل التعريه، وعليه فقس بقية المناطق الأخرى . كما أن بناء السدود المنتشرة فى أنحاء اليمن وبصورة شمولية لا نكاد نعثر لها على قرين فى كل الحضارات القديمة أو حتى فى البيئات المشابهة كبلاد اليونان والهند والحبشة وغيرها لا تحمل دالة كونها مجرد مرافق أريد من خلالها الحصول على رى دائم بدلا من الموسمى للأرض الزراعية فحسب ، ولكنها ذات دلالة أكثر بعداً على إمعان الإنسان اليمنى القديم فى التدخل فى شئون بيئته وفرض نفسه وكبريائة عليها بصورة شمولية حتى صارت علامة مميزة له ولتاريخة وحضارته حتى اليوم ، وذلك على نحو ما سنتناوله بالتحليل والبحث فى الفصول القادمة من هذه الدراسة .

(ج) أراضى السهول الشرقية

تقع مناطق السهول الشرقة فى الحافة المحاذيه للمرتفعات الجبلية الشرقية ، والممتدة آلاف الكيلو مترات إبتداء من بوادى حضر موت فى الجنوب الشرقى مرورا بوادى بيحان ووادى مارب وأنتهاء بوادى الخارد فى منطقة الجوف وحتى سهول لواء الشام الشمالية الشرقية من محافظة صعدة والمخلاف السليمانى

---

(١) راجع بصفة عامة بندلى جوزى : تاريخ الحركات الفكرية فى الأسلام ، دار الروائع بيروت ، وبالذات الفصل الخامس ص ١٥٩ وما بعدها .

فى أقصى الشمال ، والتى بالرغم من الخصوبه العاليه لتربتها التى كونتها مجارى مياه السيول المنحدره من سطح وحواف الهضبة عبر آلاف السنين ، إلا أنها لاتتلقى كمية من الأمطار المباشرة يمكن الأعتماد عليها فى الزراعة مباشرة أبدا ولكنها تستقبل المياه المنحدره من الهضبة حيث الأمطار الغزيرة نسبيا فى شكل سيول موسمية عارمه فوق سطح الأرض والتى تفاجئهم غالباً فى وضح النهار ، وتستمر لعدة أيام فقط فى السنة شاقة طريقها بسرعة فى قلب الصحراء الرملية التى لاتبعد عنها بأكثر من عدة أعشار من الكيلو مترات ، إضافة إلى مياه جوفية دائمة وغزيرة تحت سطحها بأعماق بعيدةنسبيا لا أكثر ،ومن النادر أن تحصل على مجارى مياه وغيول سطحيه دائمه الجريان على غرار ما يمكن أن نشاهده فى المرتفعات الوسطى والوديان العميقة والصغيرة الداخلية من الهضبة .

إذن فالبيئة الجغرافية فى هذه المنطقة التى أقيمت عليها أبها حضارات التاريخ اليمنى تبدو هكذا : شريط سهلى من الأرض عاليه الخصوبة يفصل ما بين سفوح الهضبة الجبلية وبحار الصحراء الرملية شمالا وشرقا بعرض يتراوح ما بين ٣٠ إلى ٦٠ كيلومترا تقريباً وبطول يتجاوز آلاف الكيلومترات كما سبقت الاشارة ، يتداخل مع الهضبة بأعماق متفاوته من مكان لاخر ، ولاتهطل عليه الأمطار إلا قليلا ويسوده مناخ معتدل مائل إلى الحرارة نسبيا طوال العام وذى رطوبة منخفضة جداً وتخترقة مجارى السيول العارمةوالمؤقتة بطريقة فوضوعية وشديدة الاضطراب وتميل سطح تربته إلى الامبساط النسبى ، وتتخللها الصخور التى تجلبها السيول من الهضبة المجاورة والمختلطة بالطمى المكثف من التربة العاليه الخصبة فى نفس الوقت ، وتندر فيه مياه العيون السطحية دائمة الجريان ، وتتوفر فيه المياة الجوفيه الغزيرة بأعماق متفاوته غير مستقرة وفقا لمواسم الامطار .

وبهذا الشكل تبدو البيئة فى هذه المنطقة ملوحة بخيرات العيش وأسباب البقا المغريه بلاحدود ، خصوصا فيما يتعلق بالمناخ الممتاز ونوع التربه العاليه الخصوبة ، إلا أنها لا تكاد تعطى شيئا بصفة تلقائية ، بل وعلى العكس من ذلك فإن السيول التى تداهمها من وقت لاخر من كل عام فى وضح الشمس الحارة والقادمة من أعماق وقه الهضاب الجبلية على بعد مئات الكيلومترات

غالباً ما تتسبب فى أضرار كبيره برعاه الابل والماعز والبدو الرحل الذين ما يزالون يعيشون فى هذه المنطقة فى الوقت الحاضر ويتنقلون فيها من مكان لأخر بخيامهم ومواشيهم ، الأمر الذى أضطرهم إلى النزوح إلى المناطق الجبلية المجاورة للاقامة لاطول مدة ممكنة من العام ولايعاودوا النزول إلى هذا السهل إلا بغرض الرعى المؤقت والانتقال من منطقة لأخرى .

إذن فبناء السدود الضخمة فى هذه المنطقة والتى يأتى فى مقدمتها سد مارب العظيم لم يكن الغرض منه مجرد حجز المياه المتدفقه للحصول على رى منظم وشبه دائم بدلا من الرى الموسمى لاراضى يفترض أنها صالحه أصلا للزراعة وغير محفوفه بالمخاطر ، بقدر ما أن بناء هذه السدود كان يشكل مهمة متعددة الأغراض بدون شك فى نطاق عملية إقتحام شاملة ومتكاملة قام بها الإنسان اليمنى القديم فى هذه المنطقة ، لا لمجرد البحث عن ضرورات تأمين العيش والبقاء عليها فحسب بل وإقامة حياه حضرية بالغه التعقيد والارتقاء المدنى والحضرى الذى عرف به تاريخ اليمن القديم أنطلاقا من هذه المنطقة . ويمكن تصور أطراف عملية الأقتحام المتكاملة هذه حسب الاولويات على النحو التالى :

١ - تنظيم المجارى الرئيسية للسيول وإحكام توجيهها بدقة نحو الصحراء، وبما يضمن عدم إنحرافها وممارسة سيرها العشوائى المضطرب الذى يهدد الأرض بالجرف والتدمير المستمر ، وتلك هى المهمة الأولى فى العملية .

٢ - إستصلاح الأرض نفسها بتسويه سطحها شديد التمايل والاضطراب، بفعل الأضطراب العشوائى لممرات السيول من وقت لأخر ، وتنقيتها من الأحراش والصخور المتداخله بها ، وإقامة الحواجز الضخمة التى تحتفظ لها بكمية المياه اللازمة للرى وتحميها من الانهيار ، وتنظيم قنوات ريها بدقة من السيول الموسمية بما يضمن عدم تعرضها لمخاطر الجرف والانهيار ويوفر إحتياجها من المياه الكافية لزراعتها ولو مرة واحده فى السنة على الأقل ، لأن الأرض فى هذه المنطقة تستطيع أن تعطى أكثر من محصول فى السنة إذا غمرت بالمياه مرة واحدة فقط ، وتلك هى المهمة الأساسية الثانية .

٣ — إقامة السدود الضخمة والكثيره فى المناطق الجبلية المجاورة للسهل لاعتراض حركة المياه وأحتجاز أكبر كمية منها وفرمله سيرها العشوائى المتعجرف وتطويعة وأستأناسة ، وتلك هى المهمة الثالثة والأخيرة ، حيث أتاح أنجاز هذه المهمة التحكم فى أخر معقل شرس ومتمرد فى طبيعة المنطقة من جهة وأنتزاع أقصى ما فى مكنونها من الخيرات من جهة أخرى ، لأن إقامة هذه السدود قد نجم عنه ثلاث نتائج بالغة الحيوية هى :

(أ) التحكم فى سير المياه وتقليل مخاطر تهديدها للأرض ومن عليها إلى حد كبير .

(ب) توفير المياه وحجزها فى المضايق الجبلية خلف حواجز السدود وأستغلالها فى الحصول على رى دائم ومنظم من خلال شبكات رى بالغة الدقة والتنظيم بدلا من الرى الموسمى المضطرب .

(ج) إن حجز المياه على مساحات واسعة بين المضايق الجبلية بفعل هذه السدود قد أدى أيضا إلى إستمرار تدفق بعض العيون الجارية فوق سطح الأرض وأرتفاع منسوب المياه الجوفية وقربها جداً من سطح الأرض ، الأمر الذى أتاح مصادر أخرى غير مباشرة وسهلة للرى فى المناطق التى قد لا تصل اليها مياه السدود مباشرة .

وإذا كان التاريخ قد أستطاع أن يتذكر ويسجل قصة رحيل كل تلك الأقوام من سباء وغيرها بعد أنهيار سدودهم ومرافق حياتهم الأقتصادية والتى يأتى فى مقدمتها سد مأرب فى هذه المنطقة إلى خارج اليمن فى شمال الجزيرة والشام والعراق وأقاموا ممالك لهم هناك من غسا سنة ومناذرة وغيرهم ، فإن أحدا لم يتذكر قط أو يسجل حتى اليوم قصة من أنقطعت بهم السبل منهم وعجزوا عن الرحيل ، والذين منهم من أبتلعته الأعماق ومنهم من لا ذا إلى الجبال والهضاب القاحلة المجاورة للسد ودلتا الوادى لكى يعتصموا بها من الموت ، فالبقية من هؤلاء الناس أنفسهم ممن يسكنون اليوم جبال مراد والجوبه وحريب وغيرها ما يزال فى الأمكان قرأة التاريخ بكل تفاصيله ليس فى اثارهم التى من السهل مشاهدتها بالعين المجرده فقط بل وفى ملامح وجوههم القانية وقاماتهم الفارعة وسلوكهم الاجتماعى المتميز والمستمد من أعماق التاريخ

السحيق التى ما عادوا يعون أو يتذكرون منها سوى ما يحدثونك به ببساطة وبحضور نفسى وتاريخى عجيب من أنهم ليسوا أصلا من سكان هذه الجبال الصخرية القاحلة التى ظلوا زمننا طويلا وحتى عهد قريب ينقبون عن أملاحها الصخرية ويحتطبون أشجارها شبه الصحراوية ويحملون كل ذلك على ظهور أبلهم إلى المدن والقرى اليمنية المختلفة ليحصلوا مقابلها على ميسور عيشهم الضرورى من الطعام عيننا ، ولكنهم يقولون لك أيضا أنهم لجاءوا إلى هذه الجبال بعد أنهيار السد ، وماعاد فى مقدورهم أن يعيشوا مرة أخرى على تلك الأرض التى غدرت بهم وصاروا ينظرون إليها نظرة يملاؤها الشك والتشاؤم ، إلى حد أن بعضهم لا يرفض كل فكرة لاعادة بناء السد وإحياء الأرض بالزراعة فحسب بل ويقاوم ذلك تحت شعار « السد لا يسد » مكتفين بحق التمسك بملكيتها الجماعية وأستخدامها كمجرد مراعى للابل والماعز .

ولقد لقيت كل المحاولات الرسمية الحديثة من قبل الدولة لدراسة المنطقة بما فيها السد نفسه كتمهيد لاعادة الحياة فيها وزراعتها مشاكل غير محدوده مباشرة وغير مباشرة لمقاومة هذه المحاولات وتعطيلها ، لا كمجرد تعبير عن شعار الشك والتشاؤم السابق « السد لا يسد » فحسب بل وعن الخوف والقلق العميق الذى بدأ يساورهم من أن تؤدى مثل هذه المحاولات إلى أفتقادهم لملكيتهم الجماعية وشبه الجماعية لهذه الأراضى فى المستقبل القريب نتيجة لهذه المحاولات والتى يستفيدون بها كمساحات وأحراش شبه غابيه شاعه لرعى الابل والماعز لا أكثر .

إننا لا نطلق مثل هذه المقولات جزافا ، لأن المرء يستطيع أن يرى بأم عينيه كما رأيت وتمعنت عن كثب كيف أستحالت هذه المنطقة (دلتا وادى مأرب) التى أقيمت فيها عاصمة ومرافق أشهر دولة حضارية مزدهرة فى تاريخ اليمن القديم إلى مراعى شحيحه شبه صحراوية للابل والمعاعز ، وكثيرا ما تتشابه فيها قيمة قطرات الماء بقطرات الدم ، وكيف أن البقية الباقية من أهلها الذين تفرقت بهم السبل والامصار فى غابر الزمن ممن لم يبارحوا الأرض قد تحولوا من عـده ملايين من الحضر إلى عـدة الاف من البدو

الرحل[1] الذين أمحت من أذهانهم بمرور ألاف السنين كل فكرة عن زراعة هذه الأرض واخضرارها ، وعجزوا حتى وقت قريب (عام الثورة ١٩٦٢) عن تصور أن هذه الأرض ذات قيمة أوأنها قادرة على أنبات زرع أخضر ، إن لم يكن ما يزال معظمهم كذلك حتى الآن بصورة مباشرة ، غير مباسرة .

ناهيك عن قدرتهم على استيعاب الحقيقة التى يمكن رؤيتها رؤيا العين والتى تؤكد أن النخيل فى هذه المنطقة يثمر خلال أثنى عشر شهرا من أنباته ، وأن العنب يجنى مرتين فى عقلة واحدة ، وأن البرتقال يثمر طوال العام ، وأن متوسط حجم ووزن حبة البطاطس والبصل تصل فى كثير من الأحيان إلى كيلوجرام فأكثر . وذلك إذا ما استطاع المرء أن يرفع ينبوعا من المياه المتدفقة بلا توقف من عمق خمسة عشر إلى خمسة وعشرين متراً تحت سطح الأرض بواسطة رافعات كهربائية عادية فى معظم أرجاء المنطقة ، أو حينما يعترض مجرى السيول الموسمية ليغمر بها قطعة أرض بالمياه مرة واحدة فى السنة ويحصل على نفس النتيجة ، وهو الأمر الذى بدأ يتنبه إليه بعض المحظوظين من سكان المنطقة المقيمين فى المدن بحكم وظائفهم الحكومية أو أعمالهم التجارية ، وقدموا لنا بذلك التجسيد المادى لهذه الحقيقة التى ماكان فى مقدور أحد تصديقها مهما بلغ الإستسلام للعواطف الوطنية والتاريخية التى تملأ أعماق كل يمنى نحو هذه المنطقة بالذات والابتعاد عن موقف الحياد العلمى فى الدراسة والبحث لو لم أكن بنفسى قد لاحظت هذه الحقيقة بالعين المجردة .

(د) السهول الغربية (تهامة)

لا تتميز سهول تهامة الغربية التى تفصل مابين مرتفعات الهضبة والبحر الأحمر عن السهول الشرقية فى شيء ، من حيث تكوين الشكل الجغرافى والامتداد الطولى والعرضى ودرجة خصوبة التربة التى قد يتفوق بها السهل الشرقى نسبياً على هذا السهل الغربى ، أما الميزة الأساسية التى يتميز بها هذا

---

(١) يشير الاحصاء السكانى الأخير الذى أجرى فى فبراير ١٩٧٥ إلى أن مجمل سكان محافظة مأرب لا يتجاوز الأربعين الف نسمة راجع كتاب الأحصاء الصادر عن الجهاز المصرى للتخطيط لعام ١٩٧٦ ص ٤٢ .

السهل الغربى عن السهل الشرقى فهى فى كونه يتلقى نسبة عاليه نسبياً من الأمطار الموسمية المباشرة تتيح زراعة بعض المحاصيل بالاعتماد على هذه الأمطار مباشرة ، إضافة إلى مجارى السهول الموسمية الأكثر غزارة وانتظاماً إلى حدما كما أن المرتفعات المجاورة فى هذا السهل من الهضبة تتميز بالخصوبة العالية والخضرة شبه الدائمة للمدرجات الزراعية التى تغطيها ، رغم تضرسها الشديد وذلك بحكم أن هذه المرتفعات الجنوبية والغربية تشكل الحواجز الأولى التى تصطدم بها الرياح الموسمية القادمة من الجنوب الغربى من سطح البحو الأحمر والمحيط الهندى والمحملة ببخار الماء بعد عبورها لسهل تهامه الضيق فى الغرب وحضرموت فى الجنوب ، وذلك على خلاف المرتفعات المجاورة للسهل الشرقى التى تميل إلى الجفاف وسيادة المناخ شبه القارى ، وذلك هو الأمر الذى أتاح استمرار العمل الزراعى ووجود علاقات إنتاجية شبه مستقرة فى هذه المنطقة الغربية من سهل تهامه مهما بلغت هذه العلاقات وهذا الإنتاج من حالات التدنى والضعف ، وفى مقابل هذه الميزة الإيجابية للسهول الغربية تسيطر عليها ميزة سلبية تحد من الميزة السابقة إلى حد كبير بالنسبة للسهول الشرقية ، وهى الارتفاع الشديد فى درجة الحرارة الذى يدخل فى تركيبه ضمن المناطق الاستوائية والمصحوب بنسبة رطوبة عالية نسبيا وانتشار بعض الأمراض والأوبئة المتوطنة التى تترك آثارها الشديدة والوضوح فى حياة سكان هذه المنطقة ونشاطهم اليومى حتى اليوم بحكم ظروف الحياة التقليدية التى يعيشونها تحت رحمة الطبيعة مباشرة وسيطرة طبقة إقطاعية مستغلة من الملاكين العقاريين الكبار ، الأمر الذى لا وجود له على وجه التقريب فى السهول الشرقية التى تتميز بالمناخ المعتدل قليل الرطوبة وخالى من الأمراض المتوطنة تماماً إضافة إلى درجة أعلى فى خصوبة التربة وجودتها ، إضافة إلى التدنى الشديد فى شيوع علاقات الملكية الإقطاعية المستغلة فى الوقت الحاضر على الأقل[1] .

---

(١) راجع توضيح أكثر لهذه النقطة فى كتابنا : التراث الشعبى وعلاقته بالتنمية فى البلاد النامية دراسة تطبيقية عن المجتمع اليمنى ، مركز الدراسات اليمنية صنعاء ١٩٨٠ ، ص ١٤٠ ، إنظر من الصفحة الهامش .

ولذلك فإن قوى الإنتاح الزراعى المتمثلة فى مصادر الطبيعة وفعل الإنسان المباشر تتميز إلى حد ما فى هذه المنطقة الغربية من مهل تهامه بالنسبة لبقية المناطق الأخرى بميل الإنسان فيها إلى التكامل السلبى مع البيئة الطبيعية والاجتماعية من حوله والتى تفيض بكثير من الخيرات المباشرة التى لاتتطلب إلا القليل من الجهد ، الأمر الذى يحد من تنامى دوافع الفعل والبحث المركز عن أسباب البقاء وتطويرها فى الطبيعة من جهة والميل إلى الاسترخاء النفسى إلى حد ما من جهة اخرى ، إضافة إلى ما تضعه الطبيعة نفسها من معوقات الحرارة المرتفعة ، وتفشى الأمراض الوبائية والمتوطنة وسيادة علاقات طبقية إقطاعية شديدة الاستغلال والقهر ، الأمر الذى جعل من سكان هذه المنطقة يعيشون حياة بائسة أكثر من أى منطقة أخرى ، رغم كل ما تفيض به من خيرات كثيرة لاتحتاج إلا القليل من الجهد والكلفة لكى تصبح فى متناول الإنسان وتطوير حياته وتلبية متطلباته .

ثانيا : الانسان

أشكال التفاعل بين الإنسان والأرض الزراعية فى المجتمعات التقليدية

إن علاقة الإنسان بالأرض التى يزرعها منذ فجر التاريخ وتكامله معها هى حقيقة تكاد تكون شبه مطلقة ، فالزراعة بالنسبة للمجتمعات التقليدية — كما يقول أحد الباحثين — ليست علاقة إنتاج اقتصادى فحسب ولكنها طراز معيشة اجتماعية أيضاً ، وإذا كانت علاقة الإنسان الاقتصادية والإنتاجية بالأرض هى علاقة مادية وتاريخية مرتبطة بأسباب البقاء وغير قابلة للتجزئة إلا أن طراز المعيشة والعلاقات الاجتماعية التى تعكسها طبيعة الممارسة لتلك العلاقة الاقتصادية والإنتاجية تتنوع تنوعاً كبيرا ، وفقا لطبيعة تنوع التركيب الجغرافى والمناخى للأرض من جهة (جبلية — نهرية — صحراوية صالحة للزراعة — غير صالحة . . الخ) وطبيعة التطور والمرحلة التاريخية التى يمر بها المجتمع من جهة اخرى ، والتى تتأثر بما قبلها وتأتى وقائع التطور إمتداداً وانعكاساً مباشرا لها إلى هذا الحد أو ذاك ، خصوصاً فى المجتمعات التقليدية القديمة ما قبل الصناعة الآلية ، حيث يميل نمط المعيشة إلى التكامل

السلبي مع الأرض الزراعية فى المناطق شديدة الغناء فى مواردها الطبيعية والزراعية وشديدة الفقر فى المناطق الصحراوية والقارية على حد سواء ، حيث تؤدى الوفرة غير العادية لمصادر العيش فى المناطق الأولى إلى التدنى الشديد لوجود دوافع البحث عن أسباب البقاء والعمل على تطويرها .

كما تؤدى الندرة الغير عادية لهذه المصادر فى الثانية إلى الخيلولة دون إحداث تطور حاسم فى تأكيد أسباب البقاء وتطورها المطرد أيضاً ، رغم توفر دوافع البحث لدى الإنسان وحدتها بحكم الضرورة فى هذه المناطق ، بينما استطاعت البيئات الوسطية الأقل غنا والأقل فقرا أن تقدم نماذج واضحة التكامل الإيجابى فى طراز معيشة الانسان واهتماماته وطراز حضارته أيضاً حيث تتوفر منذ زمن مبكر حالة من التوازن والتلازم المطرد بين توافر دوافع البحث القوية عن أسباب البقاء من جهة واستجابة البيئة الطبيعية لذلك أكثر فأكثر من جهة اخرى .

وتقدم لنا بلاد اليمن واليونان قديما ، ومعظم الأقطار الأوربية واليابان حديثاً أوضح الأمثلة الدالة على هذه الحقيقة .

فالبيئة الطبيعية والجغرافية فى اليمن بصفة عامة لاتكاد تعطى شيئاً من موارد الحياة الاقتصادية وضرورات البقاء مالم يبذل فيها جهدا إنسانياً مباشرا يتجاوز فى الغالب حدود ماتعطيه هذه الطبيعة ، التى مالت فيها الرقعة الزراعية إلى أن تكون من صنع الانسان لا من صنع هذه الطبيعة ، وأنه بمقدار مايمعن الانسان فى تدخله وفاعليته المادية فى هذه البيئة كلما استطاع أن يحصل منها على ما يوازى فاعليته وأكثر ، دون أن تتوقف إمكانياتها عند حد معين ، وبنفس المقياس الذى لاتتوقف فيه قدرات الإنسان وإمكانياته المادية والذهنية عند حد معين فى التدخل فى شئون هذه الطبيعة واستثمارها لأجله فيما يشبه عملية تناسب طردى صاعد فى اتجاه نقطة غير محددة ، والعكس بالعكس صحيح فهى لاتكاد تعطى شيئاً ما لم يبذل فيها مثل هذا الجهد المضنى ، ولا توسط بين طرفى هذه المعادلة الثابتة فى اليمن . وذلك خلافا لما يحدث فى أراضى الوديان النهرية ومناطق الغابات الاستوائية حيث يستطيع الإنسان أن يحصل على احتياجاته الضرورية لبقائه بلا أى جهد يذكر ، أو بأقل

جهد عضلى وذهنى ممكن لا يتجاوز فى كثير من الأحيان مجرد التقاط الثمار أو إصطياد الحيوانات البحرية والبرية وشبه البرية ، أو مجرد رمى البذور على الأرض ليحصل بعد وقت محدد على ما يحتاجه من المحصول من الطعام ، ولا يكرر هذه العملية لأى سبب من الأسباب إلاحينما تدعوه حاجته الاقتصادية والبيولوجية البحتة لذلك وبما لايتجاوز أشباع تلك الحاجات فى الغالب الأعم .

وإذا ماحدث وأن أقيمت فى مثل هذه البيئات الوفيرة الخير بلا عنا نظما إجتماعية مركزية قوية فإنها غالباً ماتتميز بالاغتراب عن الواقع إلى ماوراء الطبيعة من أفكار ومعتقدات خرافية وفلسفات إسطورية مغرقة من جهة ، وشديدة الظلم والقهر الطبقى والاجتماعى إلى حد العبث الا معقول من قبل الحاكمين ضد المحكومين من جهة اخرى ،وعلى خلاف ذلك نجد الأنظمة والحضارات التى أقيمت قديماً فى مناطق أقل جودة وأميل إلى الندرة النسبية فى مواردها الاقتصادية هى أميل إلى العقلانية والتحرر الذهنى دائماً .والمقارنة البسيطة التى يمكن عقدها عند مقارنة المضامين الاقتصادية والذهنية والاجتماعية للحضارة الهندية والمصرية من جهة ، واليونانية واليمنية القديمة من جهة أخرى كنماذج يستطيع أن يتلمس هذه الحقيقة بسهولة حتى يومنا هذا .

فدلتا وادى النيل تستطيع أن تقدم الكثير والضرورى لأهلها من أجل البقاء بانتظام لايحتمل الشك مهما تضاءل جهد الإنسان المباشر فى أرضها حتى ولو وصل إلى حد العدم ،إنها على الأقل سوف لن تنهار فجأة وتصبح خضرتها وماؤها فى حكم العدم كما حدث بالنسبة لدلتا وادى مأرب بعد إنهيار السد لأن دلتا مصر — كما تقول الحكمة التاريخية — هى هبة النيل ، والنيل هبة الطبيعة وصنعها ، أما دلتا وادى مأرب بسدها وجنيتها فإنها لم تكن لاهبة الطبيعة ولا من صنعها بل كانت عطاء الإنسان اليمنى وصنعه هو فى المقام الأول ، وتلازم وجود خضرتها وماؤها وعطاؤها الكثير بوجود هذا الإنسان نفسه واستمرار فاعليته المتزايدة فيها فى شكل تناسب طردى صاعد لاحد له .

والعكس بالعكس صحيح فإنه بمجرد أن بدأ هذا الإنسان العد التنازلى الهابط من خلال إهمال أرض هذه الجنة التى صنعها لنفسه بنفسه والإقلال من فاعليته الذهنية والعملية فيها لأسباب كثيرة لامجال للحديث عنها هنا ،حتى

بدأت هى بدورها تمارس نفس العد التنازلى الهابط ؛ حتى وصل الطرفان إلى مادون درجة الصفر من العدم منذ أكثر من ألف عام وحتى الوقت الحاضر، ولا توسط فى هذه المعادلة الثابتة التى تحكم علاقة الإنسان اليمنى بمجموع بيئته ورقعته الزراعية بصفة عامة كما سبقت الإشارة ، سواء فى مثل هذه المنطقة الشرقية من اليمن أو غيرها من المناطق الأخرى فى السهول الشرقية والغربية والوديان العميقة والسفوح الداخلية لمنحدرات الهضبة وسطحها، إذا ما استثنينا مناطق المدرجات الجبلية المتضرسة التى بالرغم من توفر هطول الأمطار فيها بصفة شبه منتظمة وبكميات متوفرة مما يعطى بعض الضمانات لدوام الخضرة والماء إلا إن إستزراع الأرض من خلال بناء المدرجات يتطلب جهوداً غير عادية ، وتظل مخاطر الإنهيار والجرف بالنسبة لهذه المدرجات شديدة الوضوح والأثر إضافة إلى فترات الجفاف من وقت لآخر .

وعلى ذلك فإن الحقيقة الجوهرية التى يمكن الخروج بها فى هذه النقطة هى أن علاقة الإنسان اليمنى برقعة أرضه الزراعية قد تجاوزت عبر التاريخ مجرد المنفعة الإقتصادية اللازمة للبقاء ومالت هذه العلاقة إلى أن تشكل المدخل والبعد الأساسى لتكوين شخصية هذا الإنسان ونمط تفكيره وعلاقاته الاجتماعية والسياسية والأيدولوجية والحضارية بصفة عامة .

إن الخيط الرفيع والواهى المائل إلى التذبذب الذى يفصل بين موارد الأرض وجهد الإنسان لايتيح للمرء أن يطالع فى صفحات ماضى وحاضر إنسان هذه المنطقة سوى طبيعة متمردة ترفض الإنسان تماماً لتبقى بدونه أحيانا ، أو طبيعة خاضعة سخية العطاء بعد أن يكون قد فرض نفسه عليها فرضا ، وصنعها لنفسه صنعا من الألف إلى الياء ، وكما لو كان قد صنع الحياة بدونها أو رغماً عنها ولا توسط فى ذلك ، الأمر الذى أفرز طرازاً من العلاقات الإقتصادية والاجتماعية والسياسية والمضامين الفكرية المتميزة جداً فى تاريخ هذه المنطقة وحضارتها ، خصوصاً فيما يتعلق بمراحل الإزدهار الحضارى وفترات إمعان الإنسان اليمنى فى فرض نفسه على الطبيعة وتحويلها لأجله .

فلقد كان طراز هذه العلاقات الاجتماعية والمفاهيم الفكرية المتميزة هو الافراز المباشر لنوع التعامل المتميز مع واقع هذه المنطقة الإقتصادى والجغرافى

والاستراتيجى أيضاً. وستتضح كل دلالات هذه العلاقة بين الإنسان والأرض الزراعية فى المجتمع اليمنى من خلال تحليل الدلالات الموضوعية لطبيعة التكوين الجغرافى والمناخى والإقتصادى والاستراتيجى لليمن أرضاً ومجتمعا من خلال الفقرات الآتية :

الدلالات الاقتصادية والأجتماعية لقوى الانتاج فى المجتمع اليمنى القديم

تقول إحدى الأساطير اليمنية المغرقة فى القدم على لسان وهب بن منبه الحميرى أن يعرب بن قحطان بن هود وجد رائحة المسك بأرض اليمن فقال له هود : أنت ميمون يايعرب . أنت أيمن ، ولدى : مر فإذا سكن عنك ما تجده فأنزل بأرض اليمن ، لاتمر فإنها لك خير وطن .(١) وتقول الآية الكريمة : لقد كان لسبأ فى مسكنهم آيةجنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم وأشكروا لهبلدة طيبة ورب غفور.

فهل كانت مثل هذه البدايات التاريخية التى لم نعد نقوى على قرائتها أوتذكرها إلا من خلال مثل هذه الملامح الأسطورية والغيبية الميتافيزيقية هى بدايةرحلة الإنسان اليمنى وقصتهمع هذه الرقعةالجغرافيةمن سطح الكرة الأرضية؟

الحقيقة أنه بالرغم من أشتياقنا العميق إلى الكشف عن حقيقة مثل هذه البدايات التاريخية ووصل ما أنقطع من تاريخ قصتنا على هذه الأرض ، إلا أننا وبحكم طبيعة موضوعنا هذا سوف يعنينا التركيز على البحث فى الكيفيات أكثر من البحث فى الوقائع وجزئيات البدايات والنهايات، والتى تستحق بحث وأبحاث قائمة بذاتها ومن نوع خاص قد يبتعد قليلا عن مجال اختصاصنا وإهتمامنا فى هذا البحث ، أما إذا أسترسل حديثنا وبحثنا فى مجال الكيفيات التاريخية لهذا الموضوع فإننا نستطيع القول : بأنه قد ثبت بأن للانسان اليمنى موقفا متميزا وقصة متميزة فى تعامله مع بيئته الجغرافية ، نابعة من مميزات وخصوصيات هذه البيئة نفسها ، كانت وماتزال مثار دهشة واستغواب الكثيرين ، رغم أن معظم فصول هذه القصة لم يكشف عنها كاملة ولم تتواصل حلقاتها بعد .

---

(١) شوقى عبد الحكيم : أساطير وفولكلور العالم العربى ، الجزء الأول ، طبع مؤسسة روز اليوسف ، نوفمبر عام ١٩٧٤ ، ص ٣٥ .

وإذا كان موقف الإنسان وتفكيره وتصرفاته هو دائما إنعكاس مباشر لواقعه وممارساته العملية فى صميم هذا الواقع من حوله وتعامله الدائم معه، فإننا إذا ما أردنا بناء على ذلك أن نبحث ونفسر البعد التاريخى لعلاقة الإنسان اليمنى برقعه الأرض الزراعية منذ فجر التاريخ أو أن نبحث عن الدلالات الإقتصادية للقوى الإنتاجية فى المجتمع اليمنى القديم على الأصح ، فانه لابد وأن نشخص أولا طبيعة الواقع الإقتصادى والجغرافى والمناخى لهذه الأرض والذى يشكل الأساس الأول لنوعية سلوك الإنسان وتفكيره وتصرفاته ومواقفه نحوها ، والمدخل الوحيد لتفسير هذه المواقف والتصرفات فى هذه القضية الهامة التى نحن بصدد بحثها (قضية الإنسان والأرض) ، وبتعبير أوضح قضية (قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج فى المجتمع اليمنى القديم) .

(أ) التركيب الجغرافى والمناخى

تقع اليمن على بعد خمسة عشر درجة شمال خط الإستواء ، ويعيش عليها قرابة عشرة ملايين نسمه فى الشمال والجنوب ،وهى عبارة عن هضبة بركانية شديدة التضرس والإرتفاع عن سطح البحر ، بالنسبة لما يحيط بها من المسطحات الهائلة والمترامية الأطراف من الصحارى الرملية القاحلة فى إتجاه الشمال والشرق ، والبحار والمحيطات الواسعة فى إتجاه الغرب والجنوب حيث تسود هذه المسطحات البرية والبحرية المحيطة باليمن مناخات قارية إستوائية شديدة الحرارة والجفاف ، بما فى ذلك المناطق الساحلية فى الغرب والمحاذية للصحراء فى الشمال والشرق لليمن ، حيث يبدأ بعدها فجأة مناخ الهضبة المعتدل والمنعش طوال العام ، وحيث تنتشر الخضرة والجو النقى والهواء المعتدل والطبيعة الجذابة والمغرية حقا ، والتى تشكل بالنسبة لما حولها من المساحات البحرية والبرية القاحلة متنفسا لحياة الصحراء وحرارتها الشديدة وجنتها السعيده فعلا كما وصفها قدماء الرومان .

وبذلك لاتقدم لأهلها مكانا شديد الإغراء والسحر بالنسبة لإنسان الصحراء القاحلة فى الشرق والشمال ، والمناطق شبه الإستوائية عند سواحل البحر والسواحل المقابلة من أفريقيا فى إتجاه الغرب والجنوب ، شديدة الحرارة

والرطوبة فحسب ، بل إن هذه الهضبة اليمنية بما تشتمل عليه من تركيب جبلى شديد الإنحدار والتضرس تقدم لأهلها أيضا إغراء غير محدود للتمرد وحب الرفض ونزعة التحدى وروح المبادرة والإعتزاز بالنفس عبر التاريخ والميل إلى العزلة أحيانا .

كما أن هذه الهضبة البركانية ظلت عبر التاريخ وماتزال مكانا شديد الحساسية والإغراء بالنسبة للعالم المحيط بها، وهى بالنسبة لأهلها أشبه ماتكون بوكر النسر الذى يرسل نظراته من خلاله على كل الأشياء من حوله ويحاكمها بلا خوف وبلا أية شروط مسبقه ، ويمارس فيه كبريائه وعناده ، مكتف فى سبيل ذلك بأقل اسباب البقاء وأكثرها عناء ومشقة حتى اليوم[1].

(ب) الموارد الاقتصادية

لن تعوزنا الحاجة فى هذه النقطة إلى الدخول فى تفاصيل أكثر حول أهمية العوامل الإقتصادية فى تشكيل حياة كل المجتمعات البشرية ، وانماط تفكيرها وسلوكها وعلاقات أفرادها وجماعاتها مع بعضهم البعض ، فتلك بديهة مفروغ منها ، ويكفى أن نشير هنا إلى الخصوصيات التى يتميز بها المجتمع اليمنى فى هذا الشأن ، ونؤكد بأن حجم الثروة الإقتصادية والموارد الطبيعية فى اليمن القائمة على زراعة المدرجات والمنحدرات والوديان والسهول التى يعتمد معظمها على الأمطار الموسمية غير المستقرة فى كميتها وشبه المنتظمة فى مواعيدها ، هذه الموارد لم تكن من الوفرة والإنتظام بحيث تسمح بحاله من الإستقرار والإسترخاء والإطمأنان المطلق للظروف ، ولاتستطيع أن تقدم أية حدود دنيا من الضمانات والركون إليها ، كما هو الحال بالنسبة لسكان وادى النيل وغيره من الأنهار والوديان النهرية دائمة الجريان ، والتى توفر لأهلها ضمانات إستقرار غير محدوده ترافقها حالة من الاطمئنان والاسترخاء إلى درجة اللامبالاه ، وتدنى مشاعر القلق إلى حد كبير .

---

(١) راجع فى هذا كتابنا : التراث الشعبى وعلاقته بالتنمية فى البلاد النامية ، دراسة تطبيقية عن المجتمع اليمنى . وبالذات الفصل السابع بصفة عامة . مركز الدراسات اليمنية صنعاء ، ١٩٨٠ .

هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فإن هذه الموارد لم تكن من القل والشح والندرة بحيث تعجز عن إطعام سكان هذه المنطقة أو لاتتيح لهم وفرة من الوقت للتفكير والعمل فى الأمور غير المباشرة فى حياتهم كبشر ، ولكن العكس هو الصحيح ، فهى تكفى جدا لسد إحتياجاتهم الضرورية وخلق وفر معقول من الوقت للعمل والتفكير غير المباشر ، لكن كفايتها هذه لاتوجد لها أية ضمانات مستقرة ومنتظمة ، وهى لذلك مقرونه دائما ببذل جهود غير عادية من العمل فى مواجهة الظروف الطبيعية القاسية والصراع الدائم معها بلا توقف ، والمصحوب دائما بحالة من الشك والقلق وعدم الاطمئنان والركون إلى ماهو موجود ، والتطلع دائما إلى مالم يوجد بعد ، وإلى مايمكن أن يحدث فى المستقبل ، وتلك هى نقطة الارتكاز الأولى فى هذا الموضوع .

ذلك أن الوفرة فى البيئة الطبيعية - كما يقول الدكتور الجوهرى - ليست فى ذاتها دافعا إلى التقدم الأجتماعى والنمو الاقتصادى ، ذلك أن البيئه التى تفيض بالخيرات الطبيعية قد تكون معوقه للنشاط الاقتصادى الرشيد ، لأنها لاتعلم الانسان فضائل الادخار وتدبير الأرزاق ، عل خلاف البيئة الفقيرة نسبيا[1] . فحاله القلق وعدم الركون إلى إستمرار وإنتظام موارد الحياه الأقتصادية فى المجتمع اليمنى القديم مع عدم عجزها عن توفير الحاجات الضرورية لعدة ملايين من البشر عبر آلاف السنين قد أسهم إلى حد كبير فى تنمية وتكوين عقليه إجتماعية مرنه جداً ، ومنطلقة وغير مقيده ، ودائمة التطلع إلى ما يتجاوز حدود واقعها المعطى ، ومشبعة دائما بروح الحذر وعدم الركون للامر الواقع أو الأستسلام له تحت مختلف الظروف ، ومحاولة الأمساك دائما بزمام المبادرة والأستعداد لكل الاحتمالات المتوقعه وغير المتوقعه .

ونظره سريعة إلى تعامل الفلاح اليمنى مع أرضه الزراعية وما يحيط بها

---

(١) د . محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، دار المعارف المصرية الطبعة الأولى ، ١٩٧٨ ، ص ٥٨ .

من ظروف ومتغيرات طبيعية مختلفه حتى اليوم هى جديرة بأن تؤكد لنا صدق الحقيقة العلمية السابقة ، فالمزارع اليمنى مثلا يضع فى إحتماله توقف هطول الأمطار لبعض الوقت أثناء وجود المحصول الرئيسى فى الأرض ، بحيث يؤدى التوقف إلى تدهور كبير فى كمية الناتج فى النهاية ، فيبادر فى نفس اللحظة إلى إقتلاع المحصول الرئيسى من الأرض نهائيا واستبداله بمحصول اخر يتناسب مع موسم المطر وكمية هطوله التى تمت بالفعل أو المتوقعة ، وقد يحدث العكس تماما حينما تكون كمية الأمطار أكثر من اللازم فتجرف الأرض وتفسد المحصول ، كما أنه قد يفاجاء بهطول أمطار غزيره فى وقت لم يكن متوقع هطولها كثيرا بهذه الكمية ، فيبدأ منتهزا الفرصه بزراعة الأرض بالمحصول المناسب لكمية الأمطار فى هذا الوقت من السنه ويجنى بذلك محصولا وفيرا غير متوقع ، وقد يتوقع مرور موسم كامل دون أن يجنى أية محصول رغم محاولاته الكثيرة والمتكررة ، فيعمد إلى إقتلاع المحصول نهائيا وإراحة الأرض الزراعة فى هذا الموسم نهائيا ، والاستعداد للانتقال إلى المناطق المجاورة حيث يكون المحصول وفيرا ، للعمل هناك حتى نهاية الموسم أو الهجرة إلى الخارج حتى يتمكن من تأمين معيشتة طوال العام .

كما أنه قد يظل فى عملية صراع دائم فيما يتعلق بتوفير الكمية الكافية من المياه لرى المحصول من خلال عمل القنوات والمساقى التى تعترض مجرى السيول المنحدرة لكى يوجهها إلى قطع الأرض المتناثرة هنا وهناك التى يملكها ، وقد يحدث العكس تماما بين لحظة وأخرى حينما يعانى الأمرين فى سبيل تجنيب قطع الأرض هذه ممرات المياه الغزيرة وشديدة الانحدار التى تتجاوز حد الحاجة ، وتشكل خطرا ليس على المحصول فحسب ، بل وعلى الأرض نفسها ، حيث قد تقوم السيول بجرفها وتدمير مدرجاتها المسطبيه المعقده البناء . ناهيك عما يواجهه المزارع اليمنى من مشاكل الزراعة التقليدية كالافات الزراعية التى تصيب المحصول بالأمراض المختلفة التى يعانى منها أى مزارع.

كما أن الأزدهار التاريخى لأعمال التعدين والصناعة والحرف اليدوية الراقية التى إشتهر بها اليمنى القديم إلى جانب شهرته فى أعمال التجارة الداخلية والخارجية لهو تعبير آخر عن تلك الحقيقة نفسها .

فظروف إقتصادية وطبيعية كهذه جديرة بأن تفرز حالة إجتماعية وذهنيه شديدة المرونه والأنطلاق ، وقادرة على تغيير مواقفها وتطلعاتها بسهولة من وقت لأخر على نحو ما سبقت الأشارة ، وأن تشكل ومن باب أولى تربه خصبة وبيئة مناسبة لنمو الاتجاهات والمفاهيم العقلانية ، كمفهوم أساسى بالضرورة فى حياة المجتمع وتراثه وحضارته بصفة عامة ، قليلة الميل إلى الثبات والرتابه والغلو فى الميتافيزيقيات والخرافات أو القبول بالأمر الواقع ، وهو الأمر الذى استناوله بتفصيل أكثر فى الفصول القادمة .

(ج) العوامل السياسية والأستراتيجية

إن العاملين السابقين بكل أبعادهما وتفاصيلهما التى لا مجال للحديث عنها هنا قد رافقتها وأقترنت بها عوامل إستراتيجية وسياسية ، كانت وما تزال تفرض نفسها على هذه المنطقة ، ولـكنها لم تـكن لتتعارض فى محتواها أو تتناقض على خط مستقيم مع العوامل الأقتصادية والطبيعية السابقة بصفة عامة ، بقدر ما أنها قد مثلت عوامل مساعدة ومنشطة لها بصورة مباشرة وغير مباشرة إلى حد كبير .

فاليمن تقع ضمن منطقة الشرق الأوسط التى نبعت منها أكبر الديانات السماويه فى تاريخ البشرية وأثرت فى مجرى تاريخها تأثيرا عميقا حتى اليوم ، وأرتبطت بها أبرز أحداث التاريخ الإنسانى القديم والحديث ، هذا من جهة ومن جهة إخرى فقد كانت وما تزال تشكل همزة الوصل وقنوات العبور بين الشرق والغرب والشمال والجنوب فى العالم القديم والحديث وإلى ما لا نهاية ، وهى بذلك جزء من كل هذا العالم وعلى صلة دائمة به لا تتوقف ، واليمن من جهة ثالثة كانت وما تزال من أشد أجزاء هذه المنطقة حساسيه وإغراء لاطماع الغير ، نظرا لما تتمتع به من موقع إستراتيجى فى قلب هذه المنطقة على مدخل البحر الأحمر والمحيط الهندى وما تفيض به كثبانها ووديانها وجبالها من طبيعة نقيه وساحرة وخيرات كثيرة ، وقدرة هذه المنطقة الصغيرة نسبيا على توفير العيش الـكريم لعدة ملايين من البشر عبر التاريخ ، والذى عجزت عن توفيره ملايين الأميال والـكيلومترات من الصحارى والمسطحات المائية المحيطة ، حتى إكتشاف البترول فى العقود الوسيطة من هذا القرن .

ولقد كانت اليمن وما تزال رغم ضعفها وتخلفها السياسى والأقتصادى حتى الأن هى مفتاح منطقة الجزيرة العربية بكاملها وشرق أفريقيا أيضا ، وصمام أمنها واستقرارها سياسياً واقتصاديا واجتماعيا بلا منازع . ولقد دفعت اليمن غاليا ثمن جاذبيتها ومغرياتها وحساسيتها هذه وما تزال فى مراحل ضعفها تجاه هجمات الغزاه وأطماعهم وخوفهم أيضا الذى لم ينقطع ، بالقدر الذى أستفادت منه فى فترات قوتها وأزدهارها الحضارى من كل هذه العوامل واستثمرتها إلى أقصى حد داخل حدودها وخارج حدودها ، عبر تاريخ طويل من الكر والفر بالمعنى الحضارى الذى مارسه سكان هذه المنطقة مع مختلف الشعوب والأمم القديمة والوسيطة ، ضمن دائرة حيه من الأخذ والعطا الذى لم ينقطع حتى الأن .

نتائج وإستخلاصات

إن الخيط الرفيع المليء بالاحتمالات والتقلبات على نحو ما راينا والذى ظل يربط بين الإنسان اليمنى والأرض الزراعية التى يعيش عليها وبيئته المحيطة برمتها قد أدى إلى ثلاث حقائق هامة لم تتميز بها علاقة المزارع اليمنى بأرضه ووطنه فحسب بل لقد تميز بها الطابع الحضارى لهذا المجتمع برمته منذ فجر التاريخ وحتى اليوم ، وهى تتمثل فى :

١ — الحقيقة الأولى هى الميل الواضح للإنسان اليمنى بصفة عامة والفلاح بصفة خاصة إلى عدم الأطمئنان إلى عوامل الطبيعة المحيطة به وسحب الثقة منها كمصدر ثابت لمعيشته وبقائه بصفة تلقائية رتيبة، ومال بدلا من ذلك إلى الأمساك بزمام المبادرة وفرض نفسه عليها فرضا وأنتزاع كل أسباب بقائه عليها فيما يشبه عملية القسر والتحدى المستمر معها بطريقة عجيبه، فى مثل ذلك التكوين الطبيعى — كما يقول الأستاذ محمد انعم غالب — لم تعد الأرض منحة الطبيعة ، فمعظم الرقع الأرضية إحتاجت إلى مجهود إنسانى مباشر لتكون منتجة ، وبكلمة أخرى مالت الأرض المنتجة إلى أن تكون من خلق الإنسان لامن خلق الطبيعة . (١) وتلك هى الحقيقة الأولى .

---

(١) محمد أنعم غالب : نظام الحكم والتخلف الأقتصادى فى اليمن ، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢ ، ص ٩٦ .

٢ — أما الحقيقة الثانية وهى نتيجة لما قبلها وانعكاساً مباشرا لها فهى أنه حينما حقق الإنسان اليمنى نجاحات كبيرة من خلال هذا المنطلق الإيجابى فى التعامل مع البيئة المحيطة به منذ زمن مبكر وإمساكه بزمام المبادرة تجـاهها فقد مال إلى الغلو والمبالغة فى إثبات تفوقه عليها والرغبة فى قهرها عنوة واقتدارا بمقاييس تتجاوز ميلها هى — بحكم طبيعة تكوينها الجغرافى — إلى عدم تقديم الضمانات الضرورية والمستقرة لمعيشته عليها ودوام إستعدادها للتخلى عنه فى أى لحظة اذا غفل عنها ، وتحديها الدائم له بمختلف المصاعب والعوائق الجغرافيـة والطبيعية التى تتكون منها ، سواء من حيث التكوينات الجبلية شديدة التضرس والانحدار المنعزلة عن بعضها البعض أو ارتفاع نسبة الأمطار فى منطقة معينة وانتشار الجفاف فى اخرى ، أو تناقص مقاييس درجة الحرارة إلى حد التجمد ، ابتداء من مناخ استوائى شديد الحرارة على ساحل البحر الأحمر والبحر العربى غرباً وجنوباً إلى الانخفاض والبرودة كلما اتجهنا صعودا نحو قمة الهضبة لتصل درجة التجمد فى القمة على ارتفاع ثلاثة عشر ألف قدم فوق سطح البحر وعبر مسافة تتراوح ما بين مائتين إلى ثلاث مائة كيلومتر على الأكثر من مختلف الاتجاهات وتلك هى الحقيقة الثانية .

٣ — أما الحقيقة الثانية فهى أن هذا النمط الحياتى والحضارى القائم على أساس الفعل المادى قد كرست فى حياة الإنسان اليمنى وتاريخة عقلية منطلقة ومتحررة من كثير من القيود والميتافيزيقيات والخزافات الغيبية ، لأن دمومة وضرورة الفعل ورد الفعل المادى بين الإنسان والأرض والتكامل والتكافؤ العجيب فيما بينهما كأساس جوهرى لاستمرار البقاء لم تدع له فرصة للغلو فيما وراء الطبيعة والميتافيزيقيات لكى يشكرها ويعبدها على ما تفيض به عليه من وافر الخير الكثير بدون أى عمل يذكر على غرار ما حـدث فى وادى النيل ودجله والفرات وغيرها من مناطق الحضارات النهرية القديمة والحديثة ، أو لكى يسترضيها بأن تمن عليه بأقل ضرورات البقاء بعـد أن أخفقت كل جهوده فى توفير ذلك منها على غرار ما يحدث فى المناطق الصحراوية والمناطق النادرة الموارد الاقتصادية الأخرى ، ذلك أن التوازن والتكافؤ الملحوظ بين ما تفيض به البيئة الطبيعية اليمنية من موارد اقتصادية ومغريات طبيعية وبين

ما يتطلبه ذلك من ضرورة تشغيل طاقات الإنسان وقدراته العقلية والبدنية إلى أقصى حد قد شكل المدخل والمفتاح الرئيسى الذى يتاح من خلاله معرفة وتفسير الحياة الاقتصادية والاجتماعية برمتها فى هذه المنطقة ، وما تتميز به من خصوصيات ذاتية وموضوعية أساسية وشديدة الوضوح ، فهذا التكافؤ والتوازن العجيب بين عطى الطبيعة السخى وما يتطلبه من جهد إنسانى مباشر ومكثف قد حال دون أية فرصة تذكر لانتشار الوسائط الغيبية والميتافيزيقية من عقائد وأساطير وغيرها ، أو الاجتماعية من تسلط فردى أو طبقى أو نحوه لكى تتدخل كثيراً فى هـــذه المعادلة الدقيقة ، والتى يتناسب طرفيها تناسبا طردياً بلا حدود ، أى أن الظروف الطبيعية والبيئية اليمنية تستطيع أن تعطى بقدر ما يبذل فيها من جهد ، ولا توجد حدود قصوى لنفاذ خيراتها ، بنفس القدر الذى لا توجد حدود قصوى لفعل الإنسان فيها وتطور هذا الفعل نحو الأفضل ، والعكس بالعكس صحيح فهى لا تكاد تعطى شيئاً يذكر بدون جهد بشرى مضنى مباشر .

ولقد تطورت وزادت حدة فاعلية هذه الحقائق والدلالات التاريخية التى تنظم علاقة الإنسان اليمنى بالأرض إلى مقاييس من التعامل والفاعلية الحضارية تجاوز الإنسان اليمنى معها حدود متطلباته الاقتصادية والمعيشية الضرورية ، بل لقد مال هذا العامل فى بعض مراحل التاريخ المزدهرة لأن يكون من الدرجة الثانية فى مقابل ما تشبع به هذا الإنسان منذ زمن بعيد وحتى يومنا هذا من رغبة وميل دفين إلى تأكيد قدرته على تحدى ومنازلة هذه الطبيعة والبيئة التى من حوله ، وكما لو كان يعيش معها دائماً حاله حرب مستمرة لمجرد حرصه على الشعور نحو نفسه بأنه أقوى منها وقادر على فرض كبريائه عليها ، وإشباع الكثير من المطالب النفسية والمعنوية التى تتجاوز بكثير حدود المطالب الاقتصادية والمعيشية ، وميل هذه الأرض لأن تكون من صنعة لا من صنع الطبيعة كما سبقت الإشارة .

* * *